الاسكندرية في اواخر القرن الثاني للمسيح [1]

بقلم الاب كلود مونديزير اليسوعي
استاذ العلوم التاريخية في جامعات ليون الكاثوليكية

الاخلاق والحياة الاجتماعية في الاسكندرية على عهد الرومان

اننا نشهد اليوم في الشرق، كما نشهد في الغرب، تطوراً في المدنيات سريعاً ومن نواح اخرى فاجعاً، بحيث لا يسوغ لنا صرف نظر اي كان، لا سيما النخبة المثقفة، عنه الى الاهتمام بابحاث عقيمة، او بتأمل الماضي تأملاً نظرياً لا ثمرة منه، ولكن ألسنا على يقين من ان هذا الماضي يحمل في طياته قلقاً يشبه ما نحن فيه، ومبادئ لا تزال خصبة، وحافزاً لنا فعالاً في ما نواجه من مهام. ولولا هذا الامل لما باشرنا هذا البحث عن الاسكندرية في القرن الثاني.

وفي النظر الى هذه الحقبة من الزمن عبرة فريدة: فما هو بالزمن الذي شهد ظهور المسيحية، بل هو ذاك الذي انبثقت فيه وشبت شيئاً فشيئاً، بفضل جهد بعض الرجال، والاحتكاك بالثقافة اليونانية كما تكيفت في الاسكندرية، مهد الامبراطورية الرومانية، تلك المدنية المسيحية التي عاش عليها شعوب البحر المتوسط الى يومنا هذا، وعلى الاخص تلك المدنية المسيحية الشرقية التي بلغت اوجها في بيزنطية، ثم تنحت او توارى بعضها في وجه التمدن الاسلامي فيما بعد، ولكنها لم تتلاش تماماً البتة. وسيتناول بحثنا مدينة الاسكندرية، عاصمة العقل والروح، في القرن الثاني للمسيح، وفي قلب الامبراطورية الرومانية يوم كانت هذه الامبراطورية لا تزال باسطة جناحيها من اعمدة هرقل الى نهر الفرات. في تلك المدينة وفي ذلك العهد، كان نخبة من رجال الفكر

---

[1] عن محاضرتين ألقيتا في «معهد الآداب الشرقية» باللغة الفرنسية، وستصدر هذه الابحاث في كتاب على حدة.

يتساءلون بكل وضوح فيما اذا كانت المسيحية لا تناهض مجرى الحياة ، فردية كانت ام مدنية ، ام بشرية ، وفيما اذا كانت لا تحد من جهاذ الانسان ، اقتصادياً كان ام فكرياً ، ام فنياً ، وفيما اذا كانت تتجه الى الجميع دون ما التفات الى الفروق السياسية او الاجتماعية او العنصرية ، وفيما اذا كان الاتفاق قائماً بين كتابها بحرفه ورسالتها بروحها ، وفيما اذا كانت تقيم للانسان مركزاً في الكون ، وفيما اذا كانت البشرية ، في هذا الكون ، عندهـا ، كلاً متسقاً او غباراً من الافراد ، وفيما اذا كان لدين المسيح ان ينهج السبيل لكل مسعى في الحياة ام عليه ان يلزم ناحية منها حيياً خفياً .

يوم اخذت المشكلة المسيحية تفرض ذاتها على الجميع ، كان لا بد من معرفة بل تقرير ما اذا كانت المسيحية ، كما شكاها موريس كروازيه ، احد كبار مؤرخي الثقافة اليونانية ، « تضع عقل الانسان وفكره ناحية تفوق طبعه عاملة على ملاشاة كل ما كان انسانياً » ام اذا كانت ، وفقاً لرأي مؤرخين مرموقي المكانة من امثال كيمون ، قادرة على خلق ثقافة انسانية جديدة ، وبنوع خاص على تسهيل النهضات الوطنية كتحرير لغة ، واحياء ادب او فن جديد ، مما لا بد منه لقيام مدنية ، ويمكنها ان تزيد ، احياء طقوس محلية كالقبطي والسرياني والبيزنطي .

ولن ننصرف في بحثنا هذا الى اللاهوت ولا الى الفلسفة ، وحسبنا ان نتوقف حيناً على صفحات من تاريخ الفكر والاخلاق ، من خلال كاتب هو اكليمنضوس الاسكندري ، جمع الفن الى العلم ، من ناحية الادب ، وكان ، من ناحية الفكر ، في زمنه ، مجدداً جريئاً ، حريصاً على حقوق التفكير الشخصي حتى في موضوع الدين ، ولكن على ذكاء وثقافة حالا بينه وبين الاعراض عن ماض مجيد ؛ ومن خلال اثار تعدّ من اسس الفكر المسيحي الشرقي . وقد ذكر رادماخر ، المؤلف الالماني المعاصر ، ان اكليمنضوس هو اول من بحث في قضية الثقافة الانسانية المسيحية ، ونظر اليها من كل نواحيها وبما تستحقه من اهمية واول من حاول حلها . ورأى لاهوتي انكليكاني ان هذه الآثار ، هي اول حلقة من سلسلة لاهوت الكنيسة الشرقية ، وما أحجم عن تلقيب صاحبها « بابي جميع المتصوفين » .

وبعد ، فقد حان لنا ان نلج الموضوع . وسنقتصر في هذا البحث الاول على البيئة الاسكندرية ، في اواخر القرن الثاني للمسيح ، فندرس حالتها الاقتصادية والسياسية ، الاجتماعية والبشرية ، الفكرية والدينية ، مما يمهد لنا السبيل الى استعراض بعض قضايا عمرانية في ابحاثنا المقبلة .

ان نحن شئنا ان نطلع على ما كانت عليه مدينة الاسكندرية ، في آخر القرن الثاني ، فلا بد لنا من الرجوع الى التاريخ . بناها الاسكندر ، لخمسة قرون خلت من العهد الذي ندرس ، على الارض القائمة على مصب النيل ، بين الشط وجزيرة فاروس وبحيرة ماريوتيس ، وفقاً لرسوم وضعها المهندس دينوقراطس . وما لبثت المدينة ان قامت ونمت ، بشوارعها المتوازية المتعارضة ، واحيائها المحددة ، على مثل تلك المدنية اليونانية القائمة بالترتيب والتحليل والتنظيم . . . المستغلة ماضياً حافلاً بالفن والادب والسياسة والاجتماع ، المستغنية بما لديها من خبرات عن خلق الجديد .

ثم مات الاسكندر فانتقلت المدينة الى يد البطالسة ومنها الى يد قيصر (سنة ٣٠ ق م) واصبحت ، في مطلع عهد المسيحية ، المدينة الثانية في العالم الروماني ، تنافس عاصمته روما . واصبح لها مرفأ عظيم ، وفقاً لما ذكره المؤرخ سترابون ، منه تتجه الى روما مقادير من القمح (مقدار ثلث استهلاكها) ومنتوجات المدينة من البردي والزجاج والاقمشة وبضائع اخرى تمر فيها كالجلود ، والبخور ، واطياب بلاد العرب ، وأفاويه الهند . ومع هذه البضائع كانت تسافر كذلك ، دون ما رقيب ، الوان من الاخبار والحكايات والعقائد الغريبة .

ولم يكن شعب الاسكندرية اكثر تجانساً من البضائع التي تمر فيها ، فانك تلتقي فيها الى جانب العناصر الثلاثة الهامة من يونان ويهود ومصريين ، عدداً كثيراً من سكان شواطئ المتوسط ، من الافريقي ، الى العربي ، الى الفارسي ، الى الهندي ، الى المرسيلي ، الى الاسباني ، الى غير هؤلاء جميعاً من المسافرين والمهاجرين ، فتبدو لك المدينة ملتقى سبل البشرية ، ولحمة بين عالمين ما التقيا في غيرها الا على تجاهل او تخاصم تفصل بينهما حواجز الطبيعة (من جبال وبحار وفيافٍ) او حواجز اقامتها يد الانسان وقامت بحراستها جنود لا

تضم الا العداء لما يبدو على افقها.

واما عدد سكانها، فلا شك في انه لم يبلغ عدد سكان روما، وان فاق عدد سكان انطاكية . وربما قدره البعض بالمليون ولكنه، على رأي اكثر المؤرخين، لم يكن يربي على الخمسمائة الف، وهو عدد ليس باليسير في العصور القديمة. بين هؤلاء السكان التاجر، والصانع البحري، والموظف الروماني، والطالب، ورجل الثقافة، وبينهم عدد وافر من الاغنياء (اليونان خاصة) يقوم بخدمتهم العبيد من كل امة، وبينهم رجال العمل، في المؤسسات، من الوطنيين خاصة.

وكان اليهود وافري العدد يشغلون اثنين من احياء المدينة الخمسة، ويؤلفون، على ازدراء الرومان واليونان لهم، طائفة قوية لها نظامها الخاص بما فيه حاكمها (وقد تقلد هذا المنصب احد اخوة فيلون الفيلسوف) ومجالسها وامتيازاتها وجنسيتها، كما كان لليونان جنسيتهم. بل ان الاسكندرية اصبحت بعد خراب اورشليم (سنة ٧٠) عاصمة اسرائيل المشتت، ويهودها كانوا قوماً كثيري الحركة، ميالين الى الفتن بل الى الثورات، مما حمل السلطة والجيش المحتل على مجابهتهم بالشدة، ولكنهم، على كل حال، كانوا يؤلفون عنصراً متميزاً، منفصلاً عن عامة السكان بقدر ما كان متعلقاً بناموسه وتقاليده.

اما اليونان، سواء بينهم المتنقلون والمقيمون — وقد مضى على بعض اسرهم اجيال في المدينة — فكانوا يعتبرون انفسهم في الاسكندرية السكان الاصيلين. فباني الاسكندرية يكاد يكون هلينياً، وبفضل صناعتهم قامت المدينة. وكانوا يقطنون، متفاخرين، حياً خاصاً في المدينة: البروكيوم، وان لم يعد للفظة «البرابرة» على لسانهم ما كان لها من معنى التحقير على لسان قدمائهم اذا عنوا بها الفرس. بسعيهم قامت المؤسسات التجارية والصناعية، ومنهم كانت تتألف طبقة «البورجوازيين» التي تميزت بها المدن اليونانية.

وكما كان الاسكندريون رجال عمل في التجارة والصناعة، كانوا كذلك هواة ملاهٍ ولذائذ: من سباق الخيل، الى الموسيقى، الى الرقص، الى غير ذلك من اللذات الاحط قدراً والاقرب متناولاً، والتي عرفت عند المؤرخين

من امثال كورنتليانوس « بلذات الاسكندرية » . ولم تكن تنقصهم في ملاهيهم خفة الروح، ولا الميل الى التهكم، وما نجا من لسانهم لا عمال الرومان ولا الامبراطور نفسه. لكن هذه النزعة ، وان مستقبحة اذا لم تقف عند حد ، انما تنمّ عن تيقظ الى النقد ورغبة في التفكير الشخصي ، كانا مؤاتيين لتآلف الفلسفة اليونانية والمسيحية في بيئة ثقافتها غنية.

وفيما ابسط امامكم ميل الاسكندريين الى الموسيقى والرقص ، اودّ بهذه المناسبة ، ان الفت نظر الطلاب الى مقال ظهر ، خلال السنوات الاخيرة ، في مجلة خاصة بدرس اللغات . فلقد تحدث فيه الاستاذ كولار Collart (وقد توفي من مدة قريبة) عن الطرب واللهو ومحترفي الرقص في الاقاليم بمصر الرومانية . وتنهض التفاصيل الرائعة التي أدلى بها دليلاً ساطعاً على ولع المصريين في العهد الاغريقي بالمشاهد التمثيلية، ولا سيما بالموسيقى والرقص، وان ما يقوله عن الاقاليم يصح تطبيقه على العاصمة ، كما يؤكد الكاتب ذاته.

ولا تسل عن كثرة « الزمّارين » في مصر. فقد كانت في اغلب الاحيان القرية الواحدة تزخر بعدد وافر منهم حتى ان بعضهم غدوا اساتذة لامعين مثل جوليوس ايروس الذي عاش في الاسكندرية في اوائل القرن الاول للميلاد . وكثيراً ما عهد اليه في تدريب تلاميذ حتى يجيدوا هذا الفن اجادة تامة .

من الناحية السياسية حسبنا ان نقول ان حكومة الرومان قد توصلت ، بعد حكومة « البطالسة » التي دب فيها روح الانحطاط ، الى ان تعيد ، على الاقل خلال القرنين الاولين او القرون الثلاثة الاولى ، النظام والادارة الحسنة يؤازرها دون شك جيش دائم يقيم قسم كبير منه في الاسكندرية ويحط احياناً من انفة السكان الوطنية.

سوف يتاح لنا ، في المحاضرة المقبلة ، ان نضرب امثلة حسية عن الغنى والبذخ اللذين اتسمت بهما حياة الطبقة البورجوازية باسرها في الاسكندرية . والآن اريد ان أدلل على الاختلاط العقلي والروحي الذي نشأ بآن واحد في هذه المدينة مع نشاط التجار وحركة المسافرين وحيا اللذات . وقد كانت الاسكندرية تضيف جميع العابرين ، كما انها كانت ترحب بجميع الاديان ، أأتت

من رومة او من العجم ، من الهند او آسيا الصغرى ، أكانت قديمة مثل ديانة المصريين او اليهود ، او حديثة مثل الدين المسيحي.

بالقرب من المرفأ كان البحارة يترددون الى هيكل الاله اليوناني «بوسيدون» بينما كان اليهود انفسهم في المدينة ينظرون باعجاب الى اله «سيزاريوم» وهو مقدس انشئ ، تحت تأثير النفوذ الروماني ، تكريماً لرئيس السلالة المؤلهة . وقد تمتع بشهرة عالمية هيكل الاله « سيرابيس » وبعد ان دمر عام ١٨١ من جراء حريق شب فيه ، لم يلبث ان أعيد بناؤه . ويقول بلوتارك عن هذا الاله انه اله مشترك بين الجميع . وكان ، كل عام ، التطواف بالاله ادونيس ، هذا الاله الجميل الآتي من شواطئ الفينيقيين (جبيل وصيدا) والمتمتع بشعبية كبرى في الاسكندرية ، يجتذب لدى مروره بالشوارع جماهير من البلهاء على درجات من التقوى متفاوتة.

وكانت الاديان ذات الشعائر الرمزية تجمع في فرق تختلف عدا المشتركين في الاسرار من مختلف الطبقات والاعمار والمناشئ . وعلى جوانب الهياكل والمقادس كان المشعوذون والسحرة والمخرقون يستوقفون انظار الطفيليين والمؤمنين بالشعوذات . وقد أتيح للاغريق المثقفين المجدّين ان يصغوا الى مرشدين مخلصين امثال كثير من فلاسفة ذلك العصر ، أو ان يعجبوا ، وعلى شفاههم ابتسامة فيها شيء من الشك ، بخطب رنانة يلقيها معلمون مغالطون يدعون الفلسفة لكنهم لم يكونوا سوى معلمي بيان.

ومما تجدر الاشارة اليه ان الدين اليهودي قد توصل في الاسكندرية الى تحطيم حواجز اختبأ وراءها حقبة من الزمن . ففي هذه المدينة ترجم الـ ٧٢ يهودياً ، في القرن الثاني قبل المسيح ، التوراة الى اليونانية . وفي القرن الاول للميلاد طبق فيلون على الكتاب المقدس اساليب التفسير « الرواقي » وحاول التوفيق بين الفلسفة اليونانية واللاهوت اليهودي.

لقد كان لجميع العلوم اختصاصيون فيها ، واضحت مدينة الاسكندرية دون منازع في هذا الحقل . ولم يقتصر الاهتمام على الدراسات اللغوية بل تعداها الى

العلوم القياسية كالرياضيات وعلم الفلك . وفي القرن الثاني هذا، كتب « بطليوس » جغرافيته وجمع ايضاً معهد الطب رهطاً من الطلاب كان « جالينوس » الشهير احدهم . حتى ان كثيرين قد اموا الاسكندرية ، ملتقى العلماء والوسط الغني بالمستندات والكتب التي يمكن الاطلاع عليها في مكتبتي المدينة الشهيرتين ، ان لم يكن في طلب العلم فعلى الاقل للاقامة فيها مرة في الحياة.

كانت الاسكندرية ، في الامبراطورية ، عاصمة الثقافة الكبرى حتى انها تفوقت على رومة حيث سادت الحياة السياسية كل شيء مدة طويلة من الزمن، وحيث بدا غالباً النشاط الفكري المنزه كغريب عابر، كما تفوقت على اثينة حيث عجزت جهود الامبراطرة امثال ادريان ومارك اوريل عن ان تعيد اليها ازدهار القرون الخوالي ، الامر الذي لم يحل دون اهتمام الكثيرين من سكان الاسكندرية بعلم التنجيم . لكنه من المحقق ان نظرتهم اليه اختلفت عن نظرتنا اليوم ، فقد كان هذا العلم مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً اما بالعلم في معناه الحصري واما بالدين . وحسبنا ان نذكر مؤلفات افلاطون الاخيرة حيث يحتل علم التنجيم مكانه (الشرائع والابينوميس وهما تأليفان لا يشك احد تقريباً في صحتهما) لنتبين كيف كانوا يعنون بهذا العلم ، عناية جدية .

بالرغم من ان المجتمع الاسكندري قد انقسم ، شأن المجتمعات في جميع المدن الكبرى ، الى اندية منفصلة : محيط الموظفين الرومانيين ومحيط الطبقة المثقفة ومحيط رجال الاعمال المتاجرين بالمال وصغار التجار . . الخ ، فقد بدا في حياته الاجمالية متسماً بطوابع اخلاقية وروحية ، هي طوابع عالم البحر المتوسط يومذاك .

اول هذه الطوابع ان الاسكندرية مزيج من كل الشعوب . ولقد تبين ان موت مارك اوريل (١٨٠) سجل نهاية عهد . فبالرغم من ايمانه « الرواقي » وقلة شغفه بحياة البلاط وعدم اهتمامه بالحياة الاجتماعية والسياسية ، او بالنشاط الاقتصادي ، فان هذا الامبراطور الفيلسوف كان قائد امبراطورية من اول طراز ألم يحتفظ بكل التقاليد الماضية، ألم يدافع عن الامبراطورية ووحدتها ، عن الدولة وسلطتها، وعن الدين الوطني ؟ لكن كل شيء تغير بسرعة على عهد

الامبراطورين كومود وساويروس . فاخذ مجلس الشيوخ يفقد نفوذه شيئاً فشيئاً واخذت مكانة الدين الرسمي تتضاءل رويداً رويدا . وأجيز لسكان الاقاليم الاشتراك في كل الوظائف أكان في الجيش أم في الادارة . وقد اصبح كل فرد يتمتع بحرية التنقل. هذا يسافر لتسيم اشغاله، وذاك في طلب الثقافة والتهذيب، وآخر للذة في النفس. حتى اصبح كل شخص من الفرات حتى التاميز « مواطن العالم » ؛ والكل يستفيدون من منافع هذه الامبراطورية المنظمة دون ما حماسة ودون ما امتنان . وفي كل مكان طغت الثقافة اليونانية على الثقافة الاصلية او الوطنية ، وقلت العناية بالاضطلاع بالاعباء العامة كما قل الاندفاع في سبيل خدمة الدولة ، مما جعل انعدام الروح المدنية الذي أتهم به المسيحيون يعم الجميع ولكن لاسباب تختلف عن اسباب المسيحيين.

ولا ريب في ان هذه الروح الاممية cosmopolite في الحياة العامة تماشي وفكرة التوفيق بين الآراء المتباينة والاختيار بين المذاهب الفضلى . قد يحسبون هذا التوفيق شيئاً من اللامبالاة انما يخفي قلقاً روحياً حقيقياً . فمن المعلوم ان الاستعمار الروماني حافظ على السلم والنظام في العالم المتوسط méditerranéen ، لكنه لم يحل دون تسرب التشاؤم الى النفوس . ولنا دليل مؤثر على ذلك ما ورد في يوميات رجل كان في زمانه اعظم الرومانيين ، عنينا به مارك اوريل الذي اثار الاعجاب بجهوده في سبيل صفاء الاخلاق ، وبثقته بالآلهة وباستسلامه لشريعة الكون ، وباهتمامه بان يتمم قبل كل شيء مهمته كقائد تقياً يتحلى بالاخلاص والدقة.

❀

في ذلك الوقت بقي للوثنية بعض الاثر واذا كان ما بدا فيها من مظاهر خارجية متوقفاً — الى حد كبير — على العادة والتطبع ، فانها انطوت احياناً على شعور ديني حقيقي. ولنا على ذلك امثلة عديدة :

على انه لا بد من الاعتراف بان الوثنية لم تعد ترضي النفوس . وقد اخذ بعض الفلاسفة (من اتباع الافلاطونية المستحدثة والرواقية) ينافسونها منافسة عنيفة بين الطبقة الراقية المثقفة. فوجد الناس من مختلف البيئات والطبقات ، في

الاديان ذات المظاهر الرمزية على الاخص ، ضمانة حسية وعاطفية لخلاص الفرد وخلود النفس ، وهي ضمانة مبنية على الايمان ، وجدوا فيها تنبؤاً بمخلص وتقرباً من الاله . فلم يتراجعوا عن البحث في السر ، لا بل فتشوا عنه ، اذ هناك اشراكات في الاسرار ممكنة . وغدت الكتابة الشهيرة التالية المحفورة على هيكل ايزيس تستهوي متعبدين عديدين : « انا من كان ، أو من يكون ، أو من سيكون الى الابد ولم يدرك بشري حقيقة امري . »

في هذا المجتمع الاسكندري بدا كل شيء ناقصاً ، وقتياً ، غير مستقر ، فكثرت الآراء وخفت الاعتقادات وتعددت المشاريع وقلت التحقيقات وارتسمت خطوط تشاؤم بلغ احياناً حد اليأس . ولقد رسم في القرن الثاني للميلاد فيلون اليهودي صورة سوداء للاجتماعات الثقافية في الاسكندرية ، اذ قال :

« كل يوم تزدحم بالناس الامكنة حيث تلقى الاحاديث فيبدأ الفلاسفة بالتكلم عن الفضيلة وقتاً طويلاً دون ما توقف . لكن المستمعين يفكرون في المراكب والاعمال والواردات والاملاك والمداخيل . بينما يحلم آخرون بالمعالي وبالمراتب السياسية او المدنية ، وبالفوز في مهنهم او في الفنون ، ويفكر آخرون في ملذاتهم الجسدية . واذا قدر للبعض ان يصغوا وقتاً ضئيلاً الى الحديث فانهم ينسون الدرس حالما ينصرفون . »

« لم يكن فيهم رغبة عميقة في التثقف . فبعد ان يستمعوا الى الخطب لا يتكبون على التأمل الشخصي للعمل توجب ما قيل لهم . »

بقي علينا ان نقول شيئا عن المسيحية في الشكل الذي بدت عليه يومذاك في مدينة الاسكندرية ، عندما جابهت محيطاً اغريقياً يدلف الى الزوال .

ان هذا الملتقى بين الدين المسيحي والمدنية الاغريقية ليس بامر جديد في آخر القرن الثاني . فما زلنا نذكر خطاب القديس بولس في محكمة أثينة ، وهو خطاب تجلى فيه باجلى المظاهر طموح المسيحية الناشئ وجهودها لتفهم ما عند اليونانيين الوثنيين من عاطفة دينية . ما زلنا نذكر ان انطاكية كانت مدينة يونانية على غاية الازدهار ، ووسطا ثقافياً ملحوظاً غير انها لم تتمتع يوماً ،

من هذا القبيل ، بمكانة الاسكندرية كما انها لم تصبح عاصمة مسيحية الا بعد زوال مزاحمتها .

وليس بخاف ان الاسكندرية كانت اول مدينة كبرى تنصر فيها عدد غير يسير من الاغنياء ، من الذين يهيمنون على الحياة الاقتصادية في البلاد ، ومن المثقفين ، هؤلاء الذين يضعون المبادئ ويقلبون الاوضاع على ان دخولهم جميعاً الى حضن الكنيسة أثار — بشكل يفوق حدّه ما أثاره في آسية الصغرى وكورنثية حتى رومة اهتداء كثيرين من الطبقة المسكينة ، من الصناعيين والعبيد — مسألة قيم التمدن الاغريقي باسرها ، منذ استثمار وامتلاك الخيرات المادية حتى سلطة الفلسفة وحق العقل الساعي وراء الحكمة ، ومسألة نظرية العالم والبشرية ، وامكانية المحاولة للتقرب من غير المنظور ، من الاله ذاته ، بواسطة الفكر او الصلاة .

ومهما كانت مصادر الدين المسيحي في الاسكندرية ، حيث اكتنفته الاسرار اكثر من سائر الامكنة ، فمن الاكيد انه لم يلبث ان توطدت معالمه في هذه المدينة . يشهد على ذلك انتشار الانجيل على مدى واسع . فضلاً عن ان الاسكندرية شهدت في آخر القرن الثاني قيام اسقفية تولى أمرها المطران ديمتريوس .

لا بد من التساؤل ، والحالة هذه ، عن الدور الذي اضطلعت به في هذه الكنيسة الكاثوليكية مدرسة الاسكندرية الشهيرة ، اذ كان من المسلّم به حتى السنوات الاخيرة ، كما ورد في كتب التاريخ بناء على الصيغ التقليدية ، انها اتخذت شكل كلية يرعاها رسمياً اسقف الاسكندرية . ولقد عقد السيد باردي فصلين حدد فيهما بدقة ما يمكن الجزم به وليس هو مجرد افتراض ، قائلاً : ان كان ثمة قبل اوريجينوس (Origène) مدرسة مسيحية فانها لم تكن سوى معهد للدروس يتردد اليه طلاب التنصير . ولا شيء يدل على ان الفيلسوفين بانتين وكليمنت علّما فيه . وجل ما يمكن قوله انهما ألقيا تعاليمهما في نادٍ خاص جمع فريقاً من المثقفين ، مسيحيين كانوا أم وثنيين ، وتناول البحث فيه المسائل الدينية البحتة والقضايا الفلسفية الصرفة ، والادب اليوناني والعلوم

يتضح مما تقدم ان الكنيسة الكاثوليكية استقرت حينئذ في العالم اليوناني

الروماني واقعاً ثابتاً وحقيقة حية ويوسعنا ان نتخذ من هذا الزمن نقطة لتشعب مجاري الفكر المسيحي ولكنيسة مصر اهمية خاصة في هذا التطور لانها تبدو خلافاً لما كانت عليه آسية وانطاكية نفسها ، مستقلة كل الاستقلال عن اليهودية رغم كثرة السكان اليهود فيها.

واني، حين ارسيت في الاسكندرية، ذكرت اولئك المفكرين الذين كانوا يحيطون بهذه المدينة بعد ان يجوبوا عالمهم المعروف اذ ذاك ، من أمثال اكليمنضوس الاسكندري وكثيرين سواه، متصلين بتلمين عديدين في طريقهم الى المعلم الاسمى الذي لا يلقاه الانسان سوى مرة في الحياة ، وفيه تجد النفس الحق الكامل.

وكان في الاسكندرية حشد زاخر من الافلاطونيين والمغالطين والغنوستيين وكلهم نصارى يفكرون في ايمانهم ويتساءلون شتى الاسئلة: اين قاعدة الايمان ؟ ما جوهر رسالة الكنيسة ؟ كيف نقرأ الكتاب المقدس ونحل متعارضاته اللفظية ونختار بين التأويلات المتباينة ؟ هل نهرب من العالم او نخرج منه ؟ هل على المسيحي ان يتخلى عن الفن ويزهد بالثقافة والفلسفة ؟ هل يجب عليه ان يترك كل خيرات الارض ويحتقر الغنى ؟ هل التبتل افضل من الزواج ؟

وهناك سؤال هام : هل الكنيسة واحدة موحدة ؟ أليس من تفاوت بين المؤمنين ؟ أليس فيها — كما في سواها — خاصة وعامة ؟ هل يستطيع الجميع ، دون استعداد ملائم ، التوصل إلى معرفة الله ؟

وكانت كل هذه الاسئلة تدفعهم الى الجدل، والى نقد القيم اليونانية الموروثة، والحكم على التقاليد الاجتماعية والثقافية والروحية. وان هذا النزاع بين التراث اليوناني والايمان المسيحي قد كان أعنف نزاع عرفه الضمير في ذاك الزمن.

واول مسيحي تعرض لكل هذه المعضلات وجابهها بجرأة كبيرة وحرية في التفكير وثقة بالايمان هو اكليمنضوس الاسكندري، شاهد زمانه ومثل معاصريه. اهتدى اكليمنضوس الى النصرانية، وهو عقل ناضج ، مطلع على فلسفة عصره وعلومه وادبه وفنه ، منفتح الى كل ما هو بشري ، واذا به يقضي قسماً صالحاً من حياته في الاسكندرية محادثاً ، مؤلفاً ، معبراً عن العقائد المسيحية بلغة فلسفية ، مفسراً الكتاب المقدس ، هادياً الى طيب الاخلاق

ابتعاد اغنياء الاسكندرية عن المبادئ الانجيلية في احكام اكليمنضوس الاسكندري

سبق لنا ان عرضنا ما كانت عليه بيئة الاسكندرية في اواخر القرن الثاني للمسيح من التمازج والحيوية . في هذا الخليط من الناس المختلفي العرق واللغة والثقافة والدين ، كانت فئة تتميز عن غيرها ثقافة وبحبوحة عيش ، هذه الفئة هي فئة البرجوازيين التي اظهر روستف ترف في مؤلفه « تاريخ العالم اليوناني الاجتماعي والاقتصادي » (١٩٤١) ما كان لها من اهمية . الى هذه الفئة توجه اكليمنضوس الاسكندري في القسم الاوفر من مؤلفاته وقد تطرق فيها الى البحث في « اي هو الغني الذي يمكنه ان يخلص » وفقاً لمقتضيات الآداب المسيحية ؛ كما انه بحث بدقة متناهية في مؤلفه « المعلم » في حياة الترف التي لم تكن بتناول غير الاغنياء . ويبدو من بحثه هذا انه يحاول الجواب عن سؤال عملي يتساءله المسيحيون وكل طالب ارتداد . وعندنا ان جوابه لا يتوقف عند حل حادث ضمير فحسب ، بل يتعداه الى حل مشكلة تمدن كانت قائمة في الاسكندرية في ذلك العهد .

وفي الواقع لو حلّ كاتبنا هذه المشكلة ، كما حلها في ما بعد الآباء المتوحدون ، ولو ان الكنيسة اعلنت عدم الاتفاق بين السعي البشري وما يثمر من جني مادي والحياة المسيحية ، لما قامت تلك المدنية التي اصبحت فيما بعد مدنية بيزنطية . وسنرى ان هذه المشكلة التي تهمّ الدين والمدنية في وقت واحد لا تنحصر في ما تثمر التجارة والصناعة من خيرات ، بل تتعداها الى خيرات الروح والعلم والفن . وهنا ايضاً لا بد من التساؤل عما اذا كانت المسيحية تفرض على اتباعها الاعراض عن افلاطون وارسطو ومدنية اليونان من قديمة وحديثة وتجاهلها ونسيانها .

قد تبين لنا سابقاً ان معاصري اكليمنضوس كانوا يواجهون مشكلة ناتجة من غناهم وما تفرضه روح الفقر المسيحية . وحسبي اليوم ان اذكر بعض مظاهر هذا الغنى من ترف ورخاء ، واني استخلص ملاحظاتي هذه من مؤلف اكليمنضوس « المعلم » ، غير مدخل عليها الا بعض الترتيب .

غرف النوم

خذ مثلاً غرفة النوم،فان انت دخلتها وجدتها مفروشة بالسجاد الارجواني او غيره،ووجدت فيها الاسرّة قائمة على اعمدة من فضة ومزينة بالعاج والصدف ومغطاة باغطية موشاة بالذهب ، وفيها وسادات من الريش الناعم حتى كأنَّ النائم يغرق فيها او بالاحرى يدفن («المعلم» ٢ : ٣،٩)

الحمامات

وللك في الحمامات مثل آخر ، فان بناءها لا ينقصه الفنّ ولا الدقة. تفصل بين الغرفة والغرفة حواجز شفافة غير ثابتة مغطاة بقماش ناعم، وفيها مقاعد من ذهب وفضة وآنية متعددة من المعدن عينه،حتى ان آلات تسخين الماء كانت من ذهب. واننا بغنى عن الاشارة الى ما كان يحدث في هذا الجوّ المترف من امور يشمئزّ منها الخلق السليم،ذكرها كاتبنا وندّد بها وتركها لنا شاهداً على ما بلغ اليه مجتمع الاسكندرية من ترف ورخاء .

الازياء والزين عند النساء

اما بشأن الازياء والزين فلكاتبنا أوصاف عدة نقتطف منها النزر اليسير قال :

لم يكن النساء ولا الرجال يحجمون عن استعمال الشعور المستعارة وكانوا يأتون بالشعر من الهند،ونحن نعلم ان دخوله الى اراضي الامبراطورية كان مثقلاً بالرسوم. وكانت النساء يضعن على رؤوسهن من هذه الشعور ابنية واهية يدعمنها بالدبابيس والامشاط (من ذهب وعاج وفضة) ولا يفوتهن ان يغرسن فيها الازاهير ، وكثيراً ما كان حرصهن على سلامة هذه الابنية يمنعهن من النوم ...

واليك واحدة من هؤلاء. انها آتية وها هي تقترب وتمر . كلّا لم تمرّ بل قد توقفت لتنتشف ، ها هي انظر اليها متبرجة ممشطة مشرقة . انها معجبة بذاتها ولا شغل لها الا ان تتهندم وتتطيب، وتشد خصرها. وانك لترى هؤلاء النساء مشغولات منذ الصبح بالتضييق والتمشيط والدهن ، وتحت هذه الاطباق السامة تذبل بشرتهن ويتسمم بدنهن وتذوي زهرة جمالهن وتفنى. ولو

كانت الخسارة لا تصيب الا الحال لحان الامر ولكنها كثيراً ما تقضي على الصحة ايضاً . . .

ولا تفوتهن وسيلة للخدعة . فالقصيرات ينتعلن النعال العالية من الفلين . والطويلات يقتصرن على النعال الرقيقة ويحنين الرأس اذا ما سرن حتى لا يلفت النظر طول قاماتهن المفرط . . . شقراء الحاجب تسوده بالكحل وسوداؤه تبيضه بالاسفيداج . . . جميلة الاسنان لا تنقطع عن الضحك وان محزونة . . .

داء التجمل في الرجال ايضاً

هؤلاء نساؤهن ، ولا عجب . ولكن الداء فتك بالرجال ايضاً فانهم ينصرفون الى التزين مما يدل على فساد القلوب . فهم باهتمامهم بشعورهم اشبه شيء بالعبيد والدعيرات ، مل ء افواههم علك ، وابدانهم مضمخة بالطيوب . رقاق الثياب تائهون مدى النهار في الشوارع ، يجرون برخانهم تفوق وقاحة اعمالهم سوء صيتهم كما ان سخفهم يفوق شرهم . وبسببهم ضاقت مدننا بعمال بؤساء لا فائدة منهم منصرفين دوماً الى نتف شعورهم وتسيد ابدانهم وتضميخها بالطيب ، وبسببهم ايضاً قامت في مدننا هذه الحوانيت العديدة المفتوحة ليل نهار ينصرف اصحابها الى هذه التجارة البخسة ، وسرعان ما يفتنون . وان هؤلاء الناس يظنون انهم يستطيعون ان ينزعوا عن ذواتهم الشيخوخة كما تسلخ الحية قشرتها عنها . وانهم يجددون شبابهم بخضب شعورهم . ولكن ان وسعهم تغيير لون هذه الشعور فهل يسعهم منع التجعد عن جباههم او منع الزمن عن ان يأتيهم بالموت .

تحدثت عن هؤلاء وسميتهم رجالا ، واحرى بي ان اسميهم نساء اذ لم يعد فيهم شيء من الرجولة لا في الثياب الرقاق التي يلبسونها ولا في الصوت الناعم الذي يتكلفون .

كان لباسهم يلفت النظر بفخامته : اقمشة حريرية تزينها رسوم الزهور والحيوان والنبات ، الوانها فاقعة ، وحياكتها دقيقة رقيقة .

وكان هذا اللباس اما فضفاضاً طويلاً للتبختر واما قصيراً للغواية ، حتى نعالهم — نعال النساء خاصة — كانت موشاة بالذهب ومسمرة بمسامير من

المعدن عينه ومطبوعاً عليها احياناً رسم الساق .. كل هذا الى انواع شتى من الحلى : عقود واساور وحلق من اللؤلؤ والحجارة الكريمة.

مهازل مسارحهم

وكان هؤلاء الناس يهوون مشاهد المسارح تمثل عليها المهازل المشهورة بخفتها وسماجتها ، الى المراقص ، الى سباق الخيل ، وهو لذة الجماهير ينقسم فيه الاسكندريون احزاباً انقسام الناس اليوم احزاباً سياسية.

ولم تكن تخلو مسارحهم من مشاهد الصراع اما بين المتصارعين ، واما بين هؤلاء والحيوانات .

موائد مآكلهم

ولم تكن موائدهم اقل ترفاً من سائر غرفهم . انائها من طراز الاثاث الذي كانوا يزينون به غرف النوم ومآكلهم لم تكن لتقل عن مآكلنا اليوم دقة واعتناء ، لو كان عندهم براذات او لو كان لديهم ما لدينا من وسائل النقل . وما عدا ذلك فقد كان لهم جيش من الخدم الاختصاصيين ، هذا للحوم وذاك للحلوى وآخر للشراب . يأتون بالاسماك من شواطئ صقلية ومن ابعد منها ، ويأتون بالحوت من جزيرة لسبوس وغيرها من جزر اليونان ونواحي ايطالية .

موادج النساء وملاهيهن

ومن مظاهر ترفهم ان نساءهم كانت تتنقل في شبه موادج على اكتاف العبيد ، وان منازلهم كانت تغص بما يربون فيها من العصافير الهندية والطواويس الفارسية والكلاب المالطية ، وربما اقتنى بعض السيدات مسخاً بشرياً للتلهي به والضحك منه بالنظر الى شكله المشوه وسحنته البشعة وحركاته البذيئة.

◎

وسط هذه البيئة من البذخ والغنى وجد الدين المسيحي أناساً يؤمنون به ويسترشدون بنوره . وكثيراً ما كان وعاظ غُيُر ومتصلبون في آرائهم يكررون — على طريقتهم — تنبيهات المسيح الصارمة الموجهة الى اغنياء الارض .

المنقولات والعطور في نظر اكليمنضوس

قال اكليمنضوس في حديثه عن المنقولات الكمالية :

« يجب على تلاميذ المسيح الا يميلوا اليها والا يشتهوها . لكن استخدامها ليس بمحظور على مقتنيها، شريطة ان لا يهيموا بها الى درجة تسبب لهم الحزن عند فقدانها ، لان هذه الاشياء لا يسعها ان تحقق السعادة . »

ونلمس الاعتدال ذاته في حكمه على العطور اذ يقول ، بعد ان يعرض عرضاً رائعاً تنوعها واستعمالها وتركيبها وكيفية استعمالها في الاسكندرية يومذاك :

« علينا ان لا نبتعد عن العطور ابتعادنا عن النسور او الخنافس التي يقتلها — كما يقال — قليل من عطر الورد . ومن الواضح ان النساء يجوز لهن الانتفاع بها ، على ان تكون الكمية ضئيلة والرائحة خفيفة لان الاكثار منها معناه ان تتسرب الى الاحياء عادة تحنيط الموتى .

« أليس الزيت المضر بالنحل وبسائر الحشرات نافعاً للرجال ؟ فهو يستحث همتهم ويلين عضلاتهم ويزيدهم في الالعاب الحربية سرعةً وقوة . اما العطور فانها تثير في الانسان التراخي والخمول لذلك بعد ان نقصي عن موائدنا المآكل المفسدة للذوق ، علينا ان لا نجيز لانفسنا استخدام شيء يثير فينا مرآه او رائحته شيئاً من الحس الشهواني مخافةَ ان يتسرب الى نفسنا بواسطة هذا الحس نهم قد ابتعدنا عنه . . . »

وفيما نحن نشجب الملذات المضرة بالحياة ، يبدو مهماً ان نبحث ما اذا كان بوسعنا ان نستخلص منفعة ما من استخدام العطور .

لا شك في ان ثمة عطوراً لا تثير في النفس التراخي ، ولا تدعو الى ارتكاب المنكرات ، ولا يتنافى استخدامها باعتدال مع محبة القناعة . فانها تقوي الدماغ والمعدة وتلين الاعصاب وتنفع ضد امراض مختلفة . اذاً يجب استعمالها لانعاش القوى المتراخية ولمحاربة الخمول والضجر .

وقد تكون الجمع وسيلة لاستخدام العطور ، كما قال شاعر هزلي ، ان نضمخ بها ايدينا التي تنقل الى الدماغ رائحة العطر المفيدة ، ولا يخفى ان

هناك فرقا عظيما بين الاكثار منها والتضمخ البسيط بها، فالاول من خصائص المخنثين ، والثاني نافع للصحة في اغلب الاحيان.

رأيه في استخدام الحمامات

لقد كان اكليمنضوس قاسياً في موقفه من الافراط في استخدام الحمامات. ويبدو اكيداً ان هناك دواعي حقيقية عديدة اوجبت عليه ذلك الموقف في الاسكندرية ، غير انه لم يحرم الحمامات تحريماً تاماً . فقد قال ان اسباب الاستحمام اربعة : النظافة والابتراد والصحة واللذة ، فلم يحرم سوى السبب الاخير ، باعتباره فقط لذة جسدية صرفة.

رايه في التمارين الرياضيه

بقي ان نعلم رأي اكليمنضوس في التمارين الرياضية. انه يسمح بها مع تمييز بين الرجال والنساء . فهو على كل يعتبرها عملاً مفيداً للرجال، فيما اذا كان هدفها الوحيد تنمية القوى وصيانة الصحة.

التوفيق في الفن بين تعاليم الانجيل والعادات الموروثة عن الوثنية

أود قبل نهاية هذا الدرس ان استخلص لكم من النصوص والحوادث التي عرضتها لديكم بعض الافكار :

أولها ان للاخلاق دورا تضطلع به في مدنية من المدنيات . فقد كان محور المشكلة التي أثارها في الاسكندرية كثيرون من الاغنياء المسيحيين او المسيحيين الاغنياء ، التوفيق بين تعاليم الانجيل والعادات والنظم المستمدة من التعاليم الوثنية.

ذلك ما تناوله اكليمنضوس في مباحثه وتفسيراته . وهذا بعض ما قاله بهذا الموضوع :

« جعلنا الله بنعمته لا نقول ، في مستهل كلامنا ، شيئاً لا يكون مفعماً ادباً وحقيقة او لا يكون نافعاً لخلاص اخواننا . فالاله الذي يعطي المحتاجين ويرشد الذين يبغون تدبر مصالحهم هو عينه ذو الكلمات المقولة بشأن

الاغنياء ، والتي اذا شرحت بعضها ببعض ، تقود الى حل امين فسأعيدها عليكم اذاً واشرح لكم بدقة تلك الآيات الانجيلية التي طالما اقلقتكم لان جهلكم أو ضعفكم عجز عن تفهمها :

جاء في انجيل مرقس (١٠ : ١٧–٣١) :

« وبينما هو يتقدم في الطريق العامة اسرع اليه رجل وجثا على ركبته امامه وقال له :

ايها المعلم الصالح : ماذا اعمل لارث الحياة الابدية ؟ فاجابه يسوع : لماذا تدعوني الصالح ؟ انه لا صالح الا الله وحده . تَعلَّمْ الوصايا : لا تزنِ ، لا تقتل ، لا تسرق ، لا تشهد بالزور ، لا تخدع ، اكرم اباك وامك .

فاجاب الشاب وقال له : « هذا كله حفظته منذ صباي »

ونظر اليه يسوع وأحبَّهُ وقال له : « واحدة تنقصك بعد ؟ اذهب وبع كل ما لك واعطهِ للمحتاجين ، فيكون لك كنز في السماء ، ثم تعالَ واتبعني . »

فحزن الشاب لهذا الكلام ومضى كئيباً لانه كان ذا مالٍ كثير ونظر يسوع حوله وقال لتلاميذه : كم يصعب على ذوي الاموال ان يدخلوا ملكوت الله . فتعجب التلاميذ لهذا الكلام ، غير ان يسوع اجابهم قائلاً : يابنيّ : يصعب جداً على المتكلين على الاموال ان يدخلوا ملكوت الله . فازداد التلاميذ دهشاً قائلين : « من يستطيع اذن ان يخلص ؟! »

« من يستطيع ان يخلص »

اخذ اكليمنضوس هذه الكلمات من الانجيل وجعلها عنواناً لعظة موضوعها : « ايّ غنيّ يخلص ؟ » او بالاحرى : « هل يستطيع الغني ان يخلص ؟ »

كان اكليمنضوس يعرف ان هذه المسألة تقلق بال الكثيرين من اصدقائه المستمعين الذين يؤمون مجلسه . انهم ، رجالاً ونساء ، يرغبون في السير نحو المسيح وقد جدّوا في هذا السبيل ، ولكنهم ترددوا عند سماعهم في الوعظ وجوب ترك كل شيء يملكون بحيث يصبحون مادياً في صف هؤلاء اصحاب الحرف الصغيرة وفي مستوى العمال الفقراء من حمالين ونجارة ، يعملون في المرافئ ، اولئك الذين يعيشون من لا شيء وغالباً ما تعولهم صدقة الكنيسة .

وعلى ذلك يتوجه اكليمنضوس الى مستمعيه بعطف كبير ، سنلاحظه اكثر من مرة في الطريقة التي يطرق بها موضوعه. غير ان هذا العطف لا يمنع الصرامة وها كه يبدأ عظته فيقول : « اي غني يخلص ؟ »

الله خالق كل شيء فكل شيء ملكه وله

انكم ولا شك لاحظتم ، في هذه الاسطر ، كيف تتجلى على الفور الفكرة النظرية التي ترسم موقف اكليمنضوس من الغنى . . . ان الاله هو الذي خلق كل شيء ، فكل شيء هو ملكه. واليه يجب ان يرجع كل شيء . .

ومن ثم كان كل ما نملك عطية منه واذا ما نلنا عطاياه فلسنا نقدر ان نستعملها على هوانا ولا سبيل الى الاعجاب بانفسنا اذا حظينا بها . . . وهنا يبدو خاصة الخطر الذي يحدثه الغنى : فانه يغري الانسان ويشكل سبب كبريائه .

نعم ان مبدأ دينياً يعمل هنا — لكن هذا المبدأ يوحي واقعاً بالانسانية ، والانسانية أيا كان وحيها ليست سوى وقفة للانسان في وجه الحياة اعني انها عنصر اساسي في تكوين الحضارة

ذم المدح للاغنياء

وتابع اكليمنضوس عظته فقال : ينظري انه لاكثر انسانية ان نصلي من اجل الاغنياء ، ونعيدهم الى امتلاك الحقيقة من ان نطنب في مديحهم لشر اقترفوه .

« هذه هي على ما يظهر لي ، ميزة الانسانية المسيحية او الحضارة المسيحية ، اذا بقيتا على اصلها . فجل مرامها ان تكونا انسانيتين وتساعدا الانسان على وجود الحقيقة في ما يضيه العمل بوجبها . »

اما الذين يغدقون الالقاب والمدائح على الاغنياء فيجب على ما اظن ان يُعتبروا ليس كالساقطين والادنياء فحسب — اذ هم يتظاهرون ، على أمل المكافأة ، بالاهتمام بمن لا يستحقونه — بل ان يُعتبروا ايضاً كالزنادقة والخونة .

زنادقة : لانهم يهملون الشكر والمديح للاله الواحد ذي الصلاح والكمال الذي « منه كل شيء كان ، واليه كل شيء يعود » ويخصون سمات المجد والشرف ،

المحفوظة لله وحده ، باناس تمرغوا بالرذيلة والشقاء. وقد اصبحوا مهددين بدينونة الله.

خونة : لان المال هو كاف بحد ذاته لان يضعف ويفسد نفس مالكه ومقتنيه. وفوق ذلك يأتي المداهنون الملاقون ويُلقون التشويش في عقول الاغنياء. اذ يهيجون فيهم لذة المديح الفارغة ويحملونهم على احتقار كل شيء ما عدا الثروة ، فيترهم هؤلاء. انها تجلب لهم الاحترام والاعتبار ولذلك يجمعون ، كما يقال ، ناراً على نار ويصبّون كبرياء على كبرياء ويضيفون عبئاً على ثروتهم : جسم ثقيل على حمل اثقل منه.

مع انه كان الافضل ان يجردوا ثروتهم مما يشينها ويخلصوها مما يؤذيها (كمن مرض ثقيل مميت) لان « من اتضع ارتفع » ، حسب قول الانجيل .

وعوضاً عن ان نطرئ الاغنياء ونمدحهم على عمل الشر ، يجب علينا من قبيل الانسانية ان نساعدهم بكل الوسائط الممكنة على عمل خلاصهم اذ من جهة نبتهل الى الله ان يسبغ النعم على ابنائه بفرح واستمرار.

ومن جهة ثانية فاننا اذ نهتم ونعتني بنفوسهم باقوالنا ومثلنا ، معتمدين على رحمة الله ونعمته نرشدهم ونقودهم الى امتلاك الحقيقة لان من يحصل عليها ويُشرِّف بالاعمال الصالحة هو الوحيد الذي يحصل على جزاء الحياة الابدية .

ولكن الصلاة تستدعي نفساً زكية لتظل ممتلئة قوة وثباتاً الى آخر يوم من الحياة . وحياة الانسان يلزمها ايضاً استعدادات صالحة وطاعة كاملة لوصايا المخلص.

لذلك فالسبب الذي يجعل الخلاص اكثر صعوبة على الاغنياء من الفقراء ليس بالسبب البسيط.

— وها انك ترى البعض قد عبّروا باقتضاب وبشكل سطحي عن كلام السيد المسيح القائل : « انه لاسهل على الجمل ان يدخل في ثقب الابرة من ان يدخل غني ملكوت السموات » ، فخمد نشاطهم ويئسوا من الحياة كأن الفوز بها ليس بالواجب عليهم. واذا استسلموا للعالم وتعلقوا بالحياة الدنيا ، كأنه لم يترك لهم غيرها ، ابتعدوا اكثر فاكثر عن الطريق التي توصل الى السماء ،

دون ان يهتدوا بمعرفة الى اي الاغنياء يوجه السيد المسيح كلامه ، ولا كيف يصبح المستحيل على الطبع البشري ممكناً على الانسان بواسطة نعمة الله .

— والبعض الآخر قد فهموا هذه الجملة وعبروا عنها باسلوب موافق صحيح ، لكنهم اهملوا الاعمال التي تؤدي الى الخلاص ولم يستعملوا ما هو ضروري للحصول على آمالهم واهدافهم .

واني في كلا الحالين اتحدث عن الاغنياء الذين لهم ايمان وطيد بقوة المخلص الفادي وفوزه الباهر تاركاً الذين لا يفتشون عن الحقيقة وشأنهم .

خبر الشاب الغني في الانجيل

ويقرأ اكليمنضوس على سامعيه صفحة الانجيل التي تتضمن خبر الشاب الغني ويردفها بهذا الاعتبار :

ان هذا الخبر الذي نجده في انجيل القديس مرقس نجده ايضاً عند باقي الانجيليين — قد يكون هناك بعض التباين — ولكن هذا التباين لا يفقد الكلام شيئاً من معناه .

اننا نعلم يقيناً ان مخلص العالم لم يكلم البشر حسب الروح البشرية فقط ، ولكنه بطن تعاليمه بحكمة مقدسة وبتصون . فلا نأخذن خطبه بالحرف ولا نشرحها حسب افكارنا الجسدية . بل لنجتهد في ان نتفهم معناها المحجوب باندرس المجد المتواصل .

لسنا نريد ان نعطيكم هنا تحليلاً للفظة بكاملها ، بالرغم من انها تتطلب في كل سطر ملاحظات شائقة . يكفينا في الموضوع ان نقرأ هذه الصفحة المهمة حيث يشرح المؤلف مقطع الانجيل الاكثر قلقاً للبال ، ويرسم جلياً الجواب الذي يحمله الى مستمعيه .

فما الذي جعل الشاب يهرب وما الذي ابعده عن المعلم وقد دنا منه يستجدي المعونة ؟

ما الذي جعله يفقد الرجاء والحياة وقيمة الاعمال المبررة كلها التي كان قد صنعها ليكتسبها ؟

هو هذا الكلام : « بع كل مقتناك » ولكن ما معنى هذا الكلام ؟

انه لا يعني ما يدل ظاهر الكلام عليه : تجرد عن كل غناك ، اطرحه بعيداً عنك ، فليس هذا المعنى الحقيقي . ولكن اقلعوا من نفوسكم الاحكام الباطلة التي ترتأونها في الغنى ، واقلعوا عن هذا الجرح المخجل الذي هو البخل ...

فما الجديد في كلمة المخلص هذه ... اقلعوا عن رذائلكم . اقلعوها من انفسكم ، اطرحوها بعيداً عنكم . فهذه وصيته،رهذا تعليمه الخليقان بالمؤمنين وبشخصه .

حيث نكون كنوزكم ..

ان كثرة آثامنا هي التي تقضي علينا ولا نجاة لنا الا في اتلافها . لذلك يجب علينا ان نجرد انفسنا ونعريها من الاثم لنسمع هذه الكلمات المعزية التي فاه بها المخلص :« هلموا واتبعوني ، فطريق الخلاص يفتح لطهارة القلب ، ويغلق لعدم الطهارة ، وعدم الطهارة هذا ليس قط في غناكم ولكنه كله قائم في هواكم ، في لهيب شهواتكم المتأجج . لانكم اذا كنتم اغنياء وتقرون بان ذهبكم وفضتكم وبيوتكم هي من كرم الله فترجعونها ، في شخص اخوتكم،لله الذي وهبكم اياها ، اذا كنتم تقرون بانها متعة غيركم اكثر مما هي متعتكم،اذا كنتم ترتفعون فوق اقتنائها بقوة عقلكم فتأمرونها بدلاً من ان تطيعوها ، اذا كنتم لا تنكمشون على عواطفكم الانانية فتحصنون ضمنها بل تستخدمون غناكم للعمل الالهي في سبيل خلاصكم ، اذا كنتم وقت الضرورة تتجردون من كنوزكم وتحتملون الفقر الناتج عن ذلك محتفظين بذلك الامان وذاك الفرح الصافي الثابت اللذين نعمتم بهما وسط ثرواتكم ، كنتم ممن يطوبهم السيد المسيح ويدعوهم فقراء بالروح ، وورثاء اكيدين لملكوت السماوات الذي ما كنتم تدخلونه لو نبذتم عبء غناكم لعجزكم عن حملانه .

فالرجل المنعمة نفسه من عاطفة الغني الدنسة المغلق قلبه عن روح الله لامتلائه ذهباً وتراباً،والرجل الذي يجهد ابدا النفس والجسد في اكثار خيراته الى ما لا حد له ،—انسان كهذا عبد يقوده العالم ، عبد منحن نحو الارض التي

خرج منها والتي اليها سيعود كيف يمكنه ان يلتهب شوقاً الى امتلاك الله ؟ انسان ينزع قلبه من صدره ويحل مكانه معدناً باردًا . كلّا ! انه بكليته مقيد بحب غناه الاثير وفيه سيجده الله : « لانه حيث تكون كنوزكم فهناك ايضاً قلوبكم »

ينبغي لنا ان نعتبر ، باجماع رأي المفسرين ، ان اكليمنضوس قد انخدع بنكرانه المعنى الحقيقي ، المادي المكتمل الوضوح لكلمات السيد المسيح : « بع كل مالك » ، وهو ذاته يرضى بهذا المعنى في مقطع آخر من مؤلفاته . الا اننا نبادر الى القول انه قد اصاب تماماً في الحاحه على روح هذه الدعوة ، التي يكون معناها الروحي العميق المطبق على كل انسان ليس باقل وضوحاً : لنكن متجردين ، على الاقل ، بالروح عن الغنى ، بنوع ان هذا القلب يظل متواضعاً بعيطاً رؤوفاً سخياً نحو القريب بقدر ما يجب عليه ان يكون ، اعني حسب روح الانجيل دون ما قياس ولا حساب .

هذا ايضاً واضح جد الوضوح في هذا المقطع الاخر من عظاته

ان اكليمنضوس اعطى الخطوط الاولى لواجب المحبة الاخوية لكل مسيحي ، لذلك الواجب الناتج من الاعتقاد بحقيقة الثالوث والفداء ، وهذا من الاهمية بمكان وان هناك المبدأ الروحي الثاني ينتج منه موقف اكليمنضوس السلبي بالنظر الى الخيرات الارضية .

محبة الله فوق محبة المال

ان الله هو ذاته محبة والمحبة هي التي اظهرته لنا .

ان الاب في محبته صار امرأة . والبرهان المحسوس هو كونه ولد ذاته من ذاته والثمرة التي اثمرها هي المحبة .

ولهذا السبب نزل الابن على الارض واتخذ جسداً وذاق بارادته حالة الطبيعة البشرية ، كيما يقاس ضعفنا ، نحن الذين احبنا ، مع عظمة قوته الذاتية .

وحين قدم ذاته ذبيحة لاجل افتدائنا أبقى لنا وصية جديدة : « اعطيكم محبتي » ولكن ما هي هذه المحبة ؟ وما هي عظمتها ؟

اعطى كلا منا حياته التي توازي حياة البشرية جمعاء . وهو يطلب الينا عوضاً عنها تقدمة حياتنا بعضنا لبعض . فان كانت حياتنا لاخوتنا ، وان قطعنا عهداً مع المخلص أفنضبط خيرات هذا العالم الشقية الغريبة التي لا نحسن ضبطها حباً للاقتصاد ؟ انحرم الواحد الاخر خيوراً قد تلتهمها النيران في القريب العاجل ؟

اليك من يوحنا عبارة الهية موحاة حقاً : « من لا يحب اخاه فهو قاتل » ، وسليل قايين وخليقة الشيطان ، لا يعرف قلب الله ولا يعرف رجاء الكاملين ، هو عاجز عن الايلاد والخلق ، ليس غصناً من الكرمة السماوية الابدية ، هو مقطوع وعليه ان ينتظر النار الشديدة الاضطرام .

اما انت فتعلم طريق الكمال التي يعرضها علينا بولس الرسول لبلوغ الخلاص . المحبة لا تلتمس ما هو لها ، ولكنها ، بعكس ذلك ، تغمر اخاها واليه تندفع شوقاً ولاجله تمتلىء حنوناً متزناً . المحبة تسدل ستاراً على كثرة الخطايا . المحبة الكاملة تحجب الخوف ، لا تتباهى ولا تنتفخ ، ولا تفرح بالظلم بل تفرح بالحق ، وتعذر كل شيء ، وتصدق كل شيء ، وترجو كل شيء ، وتصبر على كل شيء . المحبة لا تسقط ابداً ، اما النبوآت فستبطل ، والالسنة ستزول ، والشقاء سيبقى والذي يثبت الان هو الايمان والرجاء والمحبة . هذه الثلاثة اعظمها المحبة . وذلك حق . لان الايمان يبطل عندما نرى الله وجهاً لوجه . والرجاء يبطل عندما يملك موضوعه . اما المحبة فهي جزء مكمل للكمل وتتأجج اكثر فاكثر عند بلوغها الكمال بالذات . ان كل من يغذي نفسه بهذا يمكنه بازدياد محبته وتوبته الصادقة ان يكفر عن خطاياه ، وان كان قد حبل به بالخطيئة واتى كثيراً من الاعمال المحرمة .

الجمال جمال الروح لا المادة

ان النساء اللواتي يصرفن همهن في تجميلهن الخارجي فقط لا يشعرن بانه فيما يزين جسدهن تظل نفوسهن مهملة ، شنيعة عقيمة .

تلك هي هياكل المصريين : ان غابة مقدسة ، واروقة طويلة ، ودهاليز رحيبة توصلك اليها ، واعمدة لا تحصى تحمل القبة العالية ، والجدران المتلألئة

بالاحجار الكريمة والرسوم الفنية ترسل في كل الجهات ضياء يبهر نظرك. وهذه العظمة لا ينقصها شيء . ففي كل مكان فضة وفي كل مكان عاج . وتتعجبون حقاً كيف ان الهند والحبشة تتمكنان من تحصيل غنى يكفي لهذه الحاجة . غير ان بيت المقدس ما زال بعد محجوباً عن الانظار تخفيه احجبة طويلة من الارجوان مغشاة بالذهب والحجارة الكريمة . فاذا اخذ منك هذا المنظر العظيم مأخذه وحلمت في منظر اعظم ، وتقدمت وسألت ان ترى وجه الاله الذي من اجله بُني هذا الهيكل الفخم، واذا حضر احد الكهنة «مقرّبي الذبائح» الذين يقطنون الهيكل ، رأيته شيخاً جليلاً رصيناً يرفع حجاب المقدس ، منشداً الاناشيد الروحية كما لو انه سيريك الهاً . ولكنّ عاطفة مرّة تعقب في نفسك الاعجاب المفلوط . فهذا الاله الجبار الذي تطلبه ، وهذا المثال العظيم الذي تسرع لرؤياه ، انما هو هرّ ، هو تمساح ، هو حية او مسخ شنيع. لا اقول انه ليس اهلاً لسكنى هيكل ، بل ان مسكنه الوحيد يجب ان يكون في ظلمة الكهوف او في اوحال مستنقع وسخ . فاله المصريين مسخ يتمرّغ على طنافس من ارجوان . اليست هنا صورة تلك النساء اللابسات الذهب اللواتي لا يعرفن الملل في تفكيك ضفائر شعرهن ، والخدود تبرق تصنعاً وحواجب العينين مطلية بالالوان المفتعلة ، فانهنّ يستعملن في تزيين جسدهن وفتن الانظار الفن المغشوش الخداع الذي يستعمله المصريون لجلب العبّاد للمسخ الذي يدعونه الههم . فلو رفعتم حجاب هذا الهيكل وخرقت عيونكم حجاب هذه الثياب الارجوانية ، هذه الحلى ، هذا التصنع ، هذه الالوان التي تمشيها وتملأها ، لو حرصنا على الدخول الى نفوسهنّ املاً منا في ان نجد جمالاً حقيقياً يكون صدى لهذه الازياء ، انا اعلم ان ما نجده سننفر منه ونقبحه . وهذا الهيكل العظيم المدنس لا تسكن فيه صورة الله .

انكم عبثاً تفتشون عنها لان روح الكبرياء والخلاعة قد حلت محلها فاصبحت شبيهة بالبهيمة الدنسة المزينة بزينة بهية، تلك التي كانت مصر ترفعها على مذابحها .